ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

النشاط الاقتصادي لقبيلة الفراشيش في نهاية القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين وعلاقته باقتصاديات البلدان الأوروبية

محمد صلاح حقي

باحث في تاريخ الجزائر وتونس

مخبر دراسات – كلية العلوم الإنسانية

الجمهورية التونسية

مُلَخّص

تعتبر قبيلة الفراشيش المتمركزة في الوسط الغربي للبلاد التونسية من أشد القبائل التونسية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ومن أكبرها وزنًا ديمغرافيًا حتى أن "قاموس تونس المصور" الاستعماري الصادر باللغة الفرنسية سنة ١٩١٢" وصفها بـ"المشاغبة جدًا"، وقد لعبت هذه القبيلة دورًا مهمًا في تحريك الأحداث التاريخية في تلك الفترة لاسيما في علاقتها بقبائل الشرق الجزائري التخومية، ونظرًا لهذه الأهمية أردنا البحث في الجانب الاقتصادي لهذه القبيلة بعيدًا عن "شغبها" وشدّتها وعلاقتها ببقية القبائل التونسية الأخرى والجزائرية المتاخمة، فسلطنا الضوء على مكونات مجال الفراشيش (الوسط الغربي) ومناخه ووسطه الطبيعي وغطائه النباتي وخاصة نبتة الحلفاء التي توجد بكثرة في هذا المجال وما لهذه النبتة من إيجابيات باعتبار أنها تحولت إلى مادة حرفية معدة للتجارة وستكون فاعلة خلال القرن العشرين في فضاء الفراشيش نظرًا لكونها ستصبح حيوية باعتبار أنها أصبحت تُحَوَّلُ إلى ورق ومصدر رزق أهالي المنطقة. نتيجة لهذه الخاصيات حظيت نبتة الحلفاء ومن ورائها الغابات باهتمام كبير من قبل دولة الحماية (فرنسا) ويتجلى ذلك من خلال إصدار الأوامر والقوانين التي تعتبر كل غابات البلاد التونسية ملكًا للدولة على غرار أوامر ٤ أفريل/ أبريل ١٨٩٠ و١٣ جانفي/ يناير ١٨٩٦ و٢٢ جويلية/ يوليو ١٩٠٣ وبالأخص أمر ٢٣ أفريل ١٩١٥ الذي يسعى إلى تنظيم استغلال الغابات والمحافظة عليها وحراستها، بل ودخلت فرنسا في صراع مع إنجلترا في سبعينيات القرن التاسع عشر من أجل هذه النبتة حُسم لصالح هذه الأخيرة نظرًا لما تملكه من مصانع متطورة لتحويل الحلفاء.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٦ يونيو ٢٠١٩

تاريخ قبـول النشـر: ١٥ أغسطس ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الحلفاء؛ القبائل؛ فرنسا؛ الاستعمار؛ النشاط الزراعي

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.12816/0055850

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد صلاح حقي. "النشاط الاقتصادي لقبيلة الفراتيش في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وعلاقته باقتصاديات البلدان الأوروبية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ١٢٨ – ١٣٦.

مُقَدِّمَةُ

إن الهدف من دراسة بعض الجوانب من قبيلة الفراشيش مردّه أهمية هذه القبيلة في القرن التاسع عشر وبداية القرن الذي يليه ووزنها الديمغرافي ودورها في تحريك الأحداث خلال هذه الفترة، فهي من أكبر القبائل التونسية وزنًا ديمغرافيًا وأكثرها تأثيرًا في التحولات السياسية والاجتماعية في تلك الفترة، غير أنه رغم ذلك يمثل الواقع التاريخي للفراشيش نسيانًا كبيرًا لم تسعفه حتى الذاكرة الجماعية التي نحتتها معطيات دون أخرى وحددتها ظروف على حساب ظروف، فتعددت بذلك مجالات النسيان للقبيلة. فالهدف الأساسي من هذا العمل هو إماطة اللثام عن بعض الجوانب من تاريخ الفراشيش في حلّهم

وترحالهم وإخراجهم من دائرة النسيان أو الصَّمت أو الذاكرة المشوهة أو المشوشة. فهي محاولة لردّ الاعتبار لقبيلة حرّكت مجرى التاريخ الحديث وساهمت في إثراء مكتبة التاريخ التونسية، وهي محاولة لتقديم عناصر وثائقية ومنهجية حول التاريخ المحليّ والجهوي للبلاد التونسية في العهدين الحديث والمعاصر من خلال عيِّنَة متميزة وهي قبيلة الفراشيش بمعطياتها وأبعادها الجغرافية والديمغرافية والسياسية وخاصة الاقتصادية التي تهمّنا في هذا العمل.

كما تكمن أهمية هذا العمل في محاولة تقصيّ جذور وخصائص التاريخ الاقتصادي قبل التحولات العميقة والخطيرة التي أحدثتها الظاهرة الاستعمارية بكل آلياتها ومظاهرها ومضاعفاتها في الدولة والمجتمع في تونس الحديثة. ولئن تعددت مصادر البحث وتنوعت فإن أهمّها على الإطلاق عددًا على الأقل هو الأرشيف الوطني التونسي بما تضمَّنه من أرقام ومعلومات ووثائق أخرى تنير سبيل الباحث في التاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي وخاصة الاقتصادي محور دراستنا.

١-مكونـات قبيلـة الفراشـيش وفضـاءها الجغرافي: المجتمع والوسط الطبيعي

سنعتمد في دراستنا لقبيلة الفراشيش على الوثائق الأرشيفية الموجودة في الأرشيف الوطني التونسي علاوة على المصادر والمراجع والكتابات التي كتبت حول هذه القبيلة التي تعتبر من أكبر القبائل التونسية خلال القرن التاسع عشر، والتي استطاعت أن تفرض نفسها في فضاء وُجدت فيه ثلاثة قبائل كبرى أخرى كانت فاعلة ومؤثرة في المشهد السياسي في منطقة الوسط الغربي للبلاد التونسية ونقصد قبائل ماجر والهمامة والجلاص، وربما حظيت قبيلة الفراشيش بالاهتمام أكثر من بقية القبائل نظرًا للأحداث التي شهدها فضاء الفراشيش، ولعل أهم حدث جلب اهتمام المؤرخين هو ثورة الفراشيش أو التي سماها الهادي التيمومي "انتفاضة القصرين، تالة ١٩٠٦"[١]، وتعتبر هذه الثورة أهم حدث شهدته البلاد التونسية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين علاوة على ثورة ١٨٦٤ التي حصلت في فضاء ماجر، كما جلبت هذه القبيلة اهتمام المؤرخين نظرا لكونها قبيلة مشاغبة لا تتردد في الإغارة على القبائل المجاورة سواء التونسية أو الجزائرية.

تتمثل وثائق الأرشيف الوطني التونسي المتعلقة بتاريخ قبيلة الفراشيش خلال القرن التاسع عشر الميلادي في دفاتر جبائية وإدارية وعددها أربعة وثلاثين دفترًا، إضافة إلى ذلك نجد وثائق أخرى من نوع خاص تتمثل في الأوامر العلية الصَّادرة لعمَّال الفراشيش من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٨٨٣ وكذلك مكاتيب ومراسلات عمّال الفراشيش من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٨٨٣، وكذلك مكاتيب ومراسلات عمّال الفراشيش إلى البايات والوزراء من سنة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٨٥ وهي موجودة ضمن السلسلة التاريخية للأرشيف الوطني[٢]. أما عن عدد أفراد قبيلة الفرشيش خلال القرن التاسع عشر فقد تضاربت بشأنه الإحصائيات، حيث أكّد دوفايري سنة ١٨٨١ أن عدد الفراشيش يساوي ١٢,٠٠٠ نسمة[٣]، بينما قدّم ضابط الشؤون الأهلية الفرنسية عام ١٨٨٥ رقمًا قدّر فيه عدد سكان الفراشيش بـ١٠,٠٠٠ نسمة[٤]، أما شارل مانشيكور- الموظف السامي والكاتب المعروف- فقد تحدث سنة ١٨٩٥ عن ٦٥٠٠ نسمة[٥].

وتوضح مختلف الوثائق المتعلقة بقبيلة الفراشيش التركيبة القبلية والدمِّيَّة والعشائرية لهذا المجتمع المحليّ والجهوي للسباسب العُليا الذي احتل فضاء تالة وحيدرة وفوسانة والقصرين وسبيبة وسبيطلة وفريانة وتلابت وبرماجنة وفُمّ القرجومة وزلفان وجبل سمّامة وعين الخمايسية والقرعة وكدية الحلفاء وجبل بولحناش وجدليان وسيدي علي بن أم الزين والمريرة وعنازة والشّار والصْرَيْ والمكيمن وعين الدفلة وبوزقام وخمودة ودشرة أولاد غيدة والطباقا وجبل الأجرد وأفران والأحماد والرخمات وأم علي والمقسم وجبل الرخمات وبوشبكة وبوحية وبودرياس وخنقة الزازية... وغير هذه المجالات. وتعيش هذه القبيلة على مجال تقدر مساحته بقرابة ٤٠٠,٠٠٠ هكتار، وتخترق هذه المنطقة جبال الظهرية التونسية، وتحدّها غربًا الحدود الجزائرية وبالتحديد مجال تبسَّة فضاء قبيلة النمامشة، ومن الشمال الشرقي جبال سمامة وتيوشَّة، ومن الشرق " وطن ماجر" ومن الجنوب " وطن الهمامة "[٦].

وتعتبر قبيلة الفراشيش -حسب تعريف "قاموس تونس المصور" الاستعماري الصادر باللغة الفرنسية سنة ١٩١٢" - قبيلة مشاغبة جدًا"[٧]. وتتكون قبيلة الفراشيش

أو "بردعة الفراشيش" من ثلاثة عروش كبيرة متفاوتة الحجم الديمغرافي وهي أولاد وزاز وأولاد علي وأولاد ناجي. ويعتبر عرش أولاد وزاز الأكثر شغبًا وعددًا من بقية العروش ويتكون من أولاد عسكر والزعابة والحنادرة والأفيال والفرضة وأولاد بولعابة والبعاصصة وأولاد موسى والقصارنية، أمّا أولاد علي فيتكون من القماطة والسماعلة والحوافظ والبنانة وأولاد محمد وأولاد زيد والمراونة وأولاد غيدة والهياشرة، وأمّا أولاد ناجي فيتكون من أولاد الحاج والحوادث والحراكتة وأولاد موسى بن ناجي وأولاد محفوظ[٨].

يعتبر مناخ منطقة الفراشيش أكثر المعطيات الجغرافية بروزا إذ هو مناخ ذو طابع قاري شتاؤه قاسي كثير الثلوج وصيفه حارّ تهب خلاله رياح الشهيلي الساخنة، كما يتميز فضاء الفراشيش بمعدلات أمطار كافية لقيام حياة زراعية مرْضِيَّة، حيث بلغ معدل الأمطار السنوية بالنسبة إلى قرية تالة في الفترة الممتدة بين ١٩٠١و١٩٣٠: ٤٦١ ميلمترا[٩]، غير أن المشكل يكمن في عدم انتظام الأمطار من فصل إلى آخر ومن سنة إلى أخرى، بحيث لا يحصل أفراد القبيلة على صابة حبوب مرضية[١٠] إلا كلّ أربعة أو خمسة سنوات في أحسن الحالات، وهو ما جعل زراعة الحبوب تمثل خطرا يتهدد القبيلة التي يتهددها أيضا خطر "الزَّمَّة" - ومعناها توالي سنوات الجفاف- مما يدفع بأفراد القبيلة أو البعض منها إلى القيام بحركة الانتجاع أو "التَّعْشِيبَة" بحثًا عن الكلأ سواء في شمال البلاد أو في الأراضي الجزائرية، كما دفع هذا المناخ بأفراد القبيلة إلى التعويل على النباتات السّباسبيّة مثل الحلفاء والشيح والهندي التي لا تتأثر بقلة وتذبذب الأمطار وتغيير نشاطهم الاقتصادي من الزراعة إلى تربية الماشية.

٢-النشاط الاقتصادي لقبيلة الفراشيش: الحلفاء مصدر علاقة بين الفراشيش والقبائل الأخرى ومحاولة فرنسا وضع اليد عليها

نظرًا للوسط الطبيعي القاسي اهتم الفراشيش بالنباتات السباسبية مثل الحلفاء التي تحولت إلى صناعة بأتم معنى الكلمة، فهذه المادة موجودة بكثرة في مجال الفراشيش لأنها تتأقلم وطبيعة المناخ شبه الجاف والتربة، فأرض الفراشيش هي أرض حلفاء وهذه النبتة تحولت فيما بعد إلى خصوصية من خصوصيات الفراشيش رغم أنها موجودة أيضًا في مجالات قبائل ماجر وجلاص بالوسط الغربي التونسي والهمامة بالوسط والجنوب الغربيين وبني زيد بالجنوب الشرقي، وكذلك مجال النمامشة في تبسَّة الجزائرية، وظلت هذه النبتة فاعلة عند الفراشيش باعتبار أنها تحولت إلى مادة حرفية معدة للتجارة وستكون فاعلة خلال القرن العشرين في فضاء القصرين نظرًا لكونها ستصبح حيوية باعتبار أنها أصبحت تُحَوَّلُ إلى ورق ومصدر رزق أهالي المنطقة. وتمثل المساحة التي تمتد عليها نبتة الحلفاء بالوسط التونسي عمومًا بحوالي مليون ونصف المليون هكتار سنة ١٩٢٠[١١].

وجني الحلفاء هو عمل يشترك فيه رجال الفراشيش ونساؤهم، ويتولى الرجال ظفر الحلفاء وتحويلها إلى أدوات فلاحية متنوعة على غرار الروني والزنبيل[١٢] والشّارية[١٣] والشّامية والبردعة[١٤] والسّنّاج[١٥] والحصيرة والجيّابة[١٦] والحبل، وتوجه هذه المصنوعات الحرفية إلى الاستهلاك الداخلي ولكنها معدة أيضا للتّسويق والتّجارة، كما يمكن تسويق كمّيات من الحلفاء الخام في سنوات المساغب في سوسة والسخيرة وقابس وخاصة في صفاقس وهناك تباع الحلفاء الخام إلى تجار الحلفاء الذين يصدرونها إلى أنقلترا (إنجلترا) لاستعمالها في صناعة أنواع من الخيام والحصائر وخاصة في عجين الحلفاء[١٧].

حظيت الحلفاء والغابات باهتمام كبير من قبل دولة الحماية ويتجلى ذلك من خلال إصدار الأوامر والقوانين التي تعتبر كل غابات البلاد التونسية ملكا للدولة على غرار أوامر ٤ أفريل ١٨٩٠ و١٣ جانفي ١٨٩٦ و٢٢ جويلية ١٩٠٣ وبالأخص أمر ٢٣ أفريل ١٩١٥[١٨] الذي يسعى إلى تنظيم استغلال الغابات والمحافظة عليها وحراستها. وضمن هذا السياق دخلت العديد من أراضي الحلفاء لاسيما المحاذية للغابات في مربع أملاك الدولة، علاوة على "بلاد الزّملة" التي تعتبر أصلاً ملكًا لها ليدفع مستغلوها إتاوة مقابل استغلالهم لهذه النبتة. واستنادًا إلى هذه الأوامر وضعت السلط الاستعمارية قيودا على استغلال الحلفاء وهو ما عسّر على مجموعات الفراشيش مواصلة نشاطهم في المناطق التي دخلت ضمن أملاك الدولة.

٣-مجـــالات اســـتغلال الحلفـــاء وتنـــافس أوروبي على هذه النبتة

تمثل نبتة الحلفاء مادة أساسية للحرفيين باعتبار أنّها مادة أولية لصناعة بعض ما يحتاجه الريفي مثل الرّوني والزنبيل والشارية والبردعة والصّنّاح لوضع الهندي والحصيرة التي تستغل كفراش سواء في المنزل أو في المساجد والجوامع والجيّابة والحبل والأحذية (الطرباقة) والمشاعة لاستخراج الجبن من حليب الضأن[١٩]، كما تستعمل الحلفاء كوسيلة لحماية الخيمة من الرياح في ظل غياب نبات السّدر، وتستعمل أيضا لإشعال النار مع الإكليل الجاف و"الرّتَم" لطبخ الطعام والشّواء.[٢٠]

يتم ترويج البضائع المصنوعة من الحلفاء في العديد من الأسواق التونسية ،غير أن الصناعة الأكثر استهلاكًا للحلفاء هي صناعة "الشوامي" التي تستعمل لعصر عجين الزيتون، وقد ازدادت هذه الصناعة انتشارًا زمن الحماية تزامنا مع انتشار عمليات غراسة الزيتون في كافة أنحاء البلاد وتطور عدد المعاصر[٢١]، كما كثر الإقبال على هذه النبتة من قبل بلدان أوروبا جنوب المتوسط المنتجة لزيت الزيتون خاصةً إيطاليا وإسبانيا، كما تستعمل الحلفاء في صناعة التبغ بإيطاليا والنمسا، ذلك أن نسبة هامة من غلاف "السّيقار الممتاز" تصنع من الحلفاء، كما تباع السجائر في بعض الأحيان في علب مصنوعة من الحلفاء[٢٢]، كما تمكنت بعض المعامل البلجيكية من اختراع أعواد الكبريت المصنوعة من هذه النبتة، كما يمكن إنتاج خيوط رفيعة بعد مشط الحلفاء بواسطة الماء أو بالطريقة الميكانيكية مما سمح للعديد من المصانع في أوروبا بصنع الزّرابي والسّجاد والأبسطة والسّاف لحشو الكراسي وغيرها.[٢٣]

هذه الأهمية وهذه الاستعمالات المتعددة لنبتة الحلفاء جعل سلطة الحماية تسيطر على الأراضي المنتجة لهذه النبتة الحيوية في اقتصاد فرنسا الاستعمارية باعتبارها ستدر عليها مداخيل مالية هامة، خاصةً وأن فرنسا كانت تأمل في مزيد توسيع أسواق التصدير في القارة الأوروبية. غير أن الصناعة الأكثر ارتباطًا بنبتة الحلفاء هي الورق باعتبار أن المادة الأولية التي كانت تستغل قبل اكتشاف الحلفاء هي الخشب قبل أن يتمكن الأنقليزي " روتلاج" Routledge من اكتشاف طريقة تحويل الحلفاء إلى ورق سنة ١٨٦١[٢٤]، ومنذ هذا التاريخ عرفت صناعة الحلفاء تطورًا كبيرًا في أنقلترا (إنجلترا) وهو ما نشط صادراتها من تونس والوسط الغربي خاصة أين تكثر هذه النبتة لتحويلها في المصانع هناك، حيث بلغت سنة ١٩١٤ ، ٥٧٦٣٠٣ قنطارًا أي ما قيمته ٤,٥٠٠,٠٠٠ فرنك[٢٥]، وقد تزايد اهتمام الرأسمالية الأجنبية سيما الفرنسية والأنقليزية بأهمية ثروة البلاد التونسية من الحلفاء في سبعينيات القرن التاسع عشر[٢٦]، وحُسمت هذه المنافسة لصالح أنقلترا (إنجلترا) نظرًا لما تملكه من مصانع متطورة لتحويل الحلفاء.

وتستورد أنقلترا (إنجلترا) من الجزائر وتونس حوالي ١٠٠,٠٠٠ طن سنويًا، بينما لا تستهلك صناعة الورق في فرنسا سوى كميّة ضئيلة[٢٧]، كما تمكنت ألمانيا قبيل اندلاع الحرب الكبرى من تطوير صناعة الورق المعتمدة على الحلفاء وركزت العديد من الشركات في شمال إفريقيا لشراء هذه المادّة مزاحمة الشّركات الانقليزية، حيث كان الألمان يشترون الحلفاء بأثمان مرتفعة مقارنة بأثمان الصناعيين الأنجليز والفرنسيين وهو ما جعل "سيتانوفا" Cittanova – وهو أحد أعضاء الحجرة التجارية الفرنسية بتونس- يتساءل عن عدم اهتمام فرنسا بهذه الصناعة وعن عدم وجود مصانع لاستغلال هذه النّبتة، مع العلم أن فرنسا تستورد الورق من أنقلترا (إنجلترا) بكميات تزداد من سنة لأخرى[٢٨]، مع العلم أيضا أنه إلى حدود الحرب العالمية الأولى يتم تصدير ٥٠,٠٠٠ طن من الحلفاء الخام سنويًا إلى أنقلترا (إنجلترا) ولم يقع صنع ولو كيلوغرام واحد من الحلفاء في تونس[٢٩]، وفي هذا السياق برمجت سلطة الحماية بناء سد كبير على واد زرود بالقيروان لاستخراج الكهرباء وتطوير الزراعة السقوية بريف القيروان وتحويل حلفاء الوسط الغربي[٣٠]، ولسنا ندري لماذا تم الاختيار على القيروان وأهملت القصرين رغم أن مساحة الحلفاء في الأولى تقدر بـ١٨ ألف هكتار بينما تقدر المساحة في القصرين بـ١٤٦ ألف هكتار؟ ولكنها كانت محاولة محتشمة لأن الاستعمار الفرنسي يعتمد في استراتيجيته على التمويل الذاتي للمستعمرات، وكما هو معلوم فان ميزانية المستعمرة التونسية لا تقدر على ذلك على الأقل قبل الحرب العالمية الأولى، كما أن مثل هذه المشاريع تندرج ضمن المشاريع الصناعية التي من الممكن أن ترتقي بالبلاد التونسية إلى مرتبة اقتصادية مهمة وهو ما لا تريده الامبريالية التي تسعى إلى إبقاء المستعمرات متخلفة صناعيا

لمزيد استنزاف ثرواتها وخاصة منها المواد الأولية. وتعللت فرنسا بعدم وجود العديد من المواد الكيمياوية المساعدة على صناعة عجين الورق الواجب استيرادها من الخارج علاوة على استنزاف الثروة المائية بالجهة المهمة جدا في عجين الحلفاء.

وفي هذا السياق يقول المهندس المدني "جون كوانيي" Jean Coignet: "أن معالجة ١٠٠ كيلوغرام من الحلفاء الخام تعطي حوالي ٤٥ كيلوغراما من العجين الجاف وهذه الكمية تحتاج إلى ٤٠ كيلغرامًا من الفحم كطاقة محرّكة و٤٠ كيلوغرام للتذويب والتجفيف وغير ذلك و١٨ كيلوغرامًا من كربونات السّودة Carbonate de soude وثماني كيلوغراما من مسحوق القصر Hypochlorite de chaux أي ١٠٦ كيلوغرام من المواد الكيمياوية، مقابل ١٠٠ كيلوغرام من الحلفاء الخام يضاف إليها ٢٥ لتر مكعب من المياه الجيّدة. إن غياب هذه المواد بالبلاد التونسية هو السبب في عدم صناعة كيلوغرام واحد من الحلفاء وبالتالي يقع تصديرها إلى أنقلترا (إنجلترا). لكن في المقابل إذا بني سدّ على واد زرود وتم استغلال الكميات الهامّة من الملح والماء الموجودة بسبخة سيدي الهاني، يمكن بناء معمل لعجين الحلفاء بجانب هذا السّد وربطه بميناء سوسة عن طريق بناء خط حديدي ولن يحتاج هذا المعمل إلا إلى استيراد الفحم من الخارج لتذويب وتجفيف الحلفاء"[٣١]. يبدو أن الحديث عن القيروان لتركيز معمل لعجين الحلفاء ليس مرده كثرة هذه النبتة في الجهة (١٨ ألف هكتار مقابل ١٤٦ ألف هكتار في جهة القصرين أين تقطن قبيلة الفراشيش محور دراستنا وقد أشار المولدي القسومي إلى أن مساحة الزّملة – وهي اصطلاح عامي محلي يعني منبت الحلفاء لدى الفراشيش – بلغت ١٧٩,٠٠٠ هكتارا[٣٢]) وإنما لقربها من موانئ التصدير في سوسة التي لا تبعد سوى حوالي ٦٠ كيلومترا على القيروان بينما تبعد القصرين ٢٠٠ كيلومترا على نفس الميناء من ناحية وقرب القيروان من سبخة سيدي الهاني التي توفر كميات كبيرة من الماء والملح وهما مادتين حيوتين في عملية عجن وتحويل الحلفاء من ناحية ثانية.

وقد أدرك أفراد قبيلة الفراشيش الأهمية الاستراتيجية لهذه النبتة لدى السلطات الاستعمارية لذلك استعملت كوسيلة ضغط على السلطات الاستعمارية من قبل المقاومين الذين أقدموا على حرق ١٢٠٠ طنا من الحلفاء في سبيطلة بتاريخ ١٠ أفريل ١٩٥٦ في محاولة لإضعاف اقتصاد فرنسا.

توزع المساحة الجملية لنبات الحلفاء بالقصرين (أرض الفراشيش وماجر)

المنطقة	المساحة بالهكتار
القصرين الجنوبية (**فضاء الفراشيش**)	١٧,٥ ألف
سبيطلة (فضاء قبيلة ماجر)	١٨ ألف
فريانة (فضاء الفراينة وأولاد تليل)	٢٥ ألف
ماجل بلعباس (فضاء أولاد تليل)	٣٣ ألف
حاسي الفريد (**فضاء الفراشيش**)	٥١ ألف
باقي المناطق (**توجد بها مجالات تابعة للفراشيش**)	١,٥ ألف
المجموع	١٤٦ ألف هكتار

ما نلاحظه من خلال الجدول هو استئثار فضاء الفراشيش بالمساحة الأهم من نبتة الحلفاء (حاسي الفريد والقصرين الجنوبية ٦٨,٥ ألف هكتار علاوة على باقي المناطق).

توزع مساحة نبتة الحلفاء في البلاد التونسية ونصيب القصرين منها

المنطقة	المساحة بالهكتار
القصرين (**مجال الفراشيش**)	١٤٦ ألف
سيدي بوزيد (**مجال قبيلة الهمامة**)	٩٩ ألف
قفصة (**مجال قبيلة الهمامة**)	٩٥ ألف
القيروان (**مجال قبيلة الجلاص**)	١٨ ألف
قابس (**مجال قبيلة بني زيد**)	٣٢ ألف
الأراضي الجزائرية المجاورة	---------- ----------

٤-الزّراعة والرّعي:

مصدر عيش قبيلة الفراشيش

تخترق سلسلة الظهرية مجال الفراشيش من الجهة الغربية وتتمثل في جبال بيرانو ولجرد والشعانبي، ويتميز مجال الفراشيش بمنطقتين طبيعيتين متباينتين ولكنهما متكاملتين:

- المنطقة الشمالية الرطبة وتحتوي على تربة طينية تعرف لدى الفراشيش بـ"الحميري" و"العيثة" وهي تربة متوسطة الخصوبة ونباتها الصنوبر والدّيس[٣٣].
- المنطقة الجنوبية السباسبية شبه الجافة وتغلب عليها التربة الرملية الفقيرة ونباتها الحلفاء والنباتات النحيفة.

ويتميز مجال الفراشيش باتساعه وهو ما جعله متنوع الأنشطة الاقتصادية: بين النشاط الزراعي والغابي والرعوي، حيث ينتشر النشاط الأول في المناطق السَّهلية على غرار الحوافظ والسّماعلة وأولاد محمد وأولاد غيدة من عرش أولاد علي الذين ينتشرون حول بحيرة فوسانة وخمودة والحماد وهنشير الأرنب والصرّي، علاوة على هنشير القصرين. وتشق هذه الأراضي مجاري عميقة تغذيها سيول السّفوح والمنحدرات مثل سمامة ومن بين هذه المجاري وادي الحطب ووادي الدرب وحيدرة والشَّار...، وتتميز هذه المجموعات من الفراشيش القاطنة بهذه المنطقة بالاستقرار المرتبط أساسًا بزراعة الحبوب خاصة القمح والشعير، ونظرًا لأهمية الزراعة تقل المراعي بهذه المنطقة. أما النشاط الغابي فيمارسه سكان الغابات مثل أولاد العَسَّالْ والبريكات والحراكتة الذين تمركزوا حول مرتفعات لجرد وبيرانو وعين بودرياس والطباقا وهي مناطق حدودية مع المناطق الشرقية الجزائرية، وأمَّا نشاط هذه الفئة من الفراشيش فهو النشاط الزراعي بالفرجات الجبلية وتربية الماشية وقطع الخشب وصناعة الفحم والقطران والدباغ وتربية النحل[٣٤].

وقد فرض هذا النشاط الغابي على الفراشيش نمط عيش مستقر لكن هذا لا ينفي لجوء هذه المجموعات من القبيلة إلى الترحال والانتجاع أحيانا كلما اقتضت الضرورة. وهو ما يعني ازدواجية بين نمط العيش المستقر والراحل وهذا يفسره محافظة هذه المجموعات على خيامها إلى أواسط القرن التاسع عشر رغم ظهور سكن الأكيام (جمع كيم) والمعامير (جمع معمّرة)[٣٥].

أما النشاط الرعوي فيميز المجال السباسبي على غرار حاسي الفريد وتعرف المنطقة محليا بـ"الرّملة" لأهمية نبات الحلفاء وهي مجال النشاط الرعوي بامتياز نظرا لتوفر تشكيلات نباتية دائمة تعرف "بالحماضة والقْطَفْ" تساعد على تغذية القطيع خاصة الأغنام والإبل على امتداد السَّنة علاوة على أهمِّية العيون[٣٦]، ومن المختصين في النشاط الرعوي من فروع قبيلة الفراشيش أولاد وزاز وخاصة فرق الأفيال والزعابة وأولاد عسكر وأولاد خضراوي من البعاصصة[٣٧]، وهناك تكون زراعة الحبوب محدودة جدًا.

ونظرًا لطبيعة النشاط الرعوي تعرف هذه المجموعات من الفراشيش بالترحال والانتجاع، حيث تتنقل شمالا نحو بلاد "فْرِيقْيَا" صيفًا (الكاف حاليًا)، ونحو المجالات الجنوبية الدافئة خلال فصل الشتاء بحثا عن المرعى وحفاظا على سلامة القطيع من برد الشّمال. غير أن سنوات المساغب المتعددة بمجال الفراشيش تدفع بجميع مكونات هذه القبيلة إلى الرّحيل في إطار ظاهرة "الهطايا" في اتجاه بلاد الحبوب صيفًا – والهطايا هي المشاركة في حصاد الحبوب ببلاد "فريقيا" - وبلاد التمر شتاء، حيث يذكر الملف ٢٠٠، بتاريخ (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧-١٨٦٨)، الوثيقة ٦٠ رسالة بعث بها محمد قعيد بن سالم إلى الوزير بوعتور جاء فيها ما يلي: "لمّا تعينا وجدنا القليل من الفراشيش منهم من هو بناحية الجريد ومنهم بناحية الأعراض ببني زيد وهم أولاد وزّاز والبعض خارج العمالة". كما أن العديد من الفرق تتحول إثر فترة الصيف إلى مجالات غراسة الهندي"للتخريف" على هذه الثمرة التي تعتبر "أهم النبات النّافع للفقراء"[٣٨] وذلك داخل مجال القبيلة خاصة في زلفان وسمامة وبولحناش[٣٩].

خَاتمَةٌ

من خلال ما تقدم نستنتج أن نمط عيش قبيلة الفراشيش فرضته الظروف الطبيعية لاسيما المناخية، فالاعتماد على الحلفاء والهندي والرعي والغابات وهي خصوصيات الغطاء النباتي في الجهة أمر أملاه مناخ المنطقة شبه الجاف باستثناء شمال القصرين (تالة وحيدرة وفوسانة) أين يمارس النشاط الزراعي، كما نستنتج أن هذه الخاصية المناخية لفضاء قبيلة الفراشيش فرضت عليهم أو على العديد منهم تعاطي ظاهرة الانتجاع والهجرة المؤقتة سواء نحو فريڤيا (شمال البلاد التونسية) أو نحو الجنوب (بلاد التمر) علاوة على ممارستهم لظاهرة الهطايا. كما نستنتج تأقلم هذه القبيلة مع واقعها المناخي من خلال استغلالها لثرواتها كغذاء على غرار نبتة الهندي التي تستغل كغذاء للبشر وللحيوانات.

الملاحظة المهمة الأخرى تتمثل في احتواء فضاء الفراشيش على ثروة نباتية مهمة ساهمت في نمو صناعي للبلدان الأوروبية لاسيما أنقلترا (إنجلترا) وألمانيا وهي نبتة الحلفاء، كما ساهمت في توفير مداخيل مالية هامة للسلطات الاستعمارية الفرنسية التي سيطرت على البلاد منذ ١٨٨١، فكان فضاء الفراشيش – بهذه النبتة – سببًا في التنافس بين القوى الرأسمالية الأجنبية وفي تطور صناعة الورق بمادته الأولية وهي الحلفاء. غير أن هذه النبتة ظلت اليوم في القرن الحادي والعشرين مهملة ولا تستأثر بالاهتمام اللازم رغم إقرار مصنع لعجين الحلفاء وصنع الورق بفضاء الفراشيش (القصرين)، كما أن صادرات هذه المادة الخام توقفت بعد أن كانت مزدهرة خلال الفترة الاستعمارية رغم أهمية الكميات حيث تشير الإحصائيات إلى وجود (٤٢) منشرًا للحلفاء موزعين على كامل جهة القصرين.

الملاحق

خريطة رقم (١)

توزع الأنشطة الاقتصادية لقبيلة الفراشيش

المصدر: الماجري (لزهر)، **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي)**، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منّوبة، ٢٠٠٧، ص ٧٠ (بتصرف).

خريطة رقم (٢)
موقع قبيلة الفراشيش خلال القرن التاسع عشر

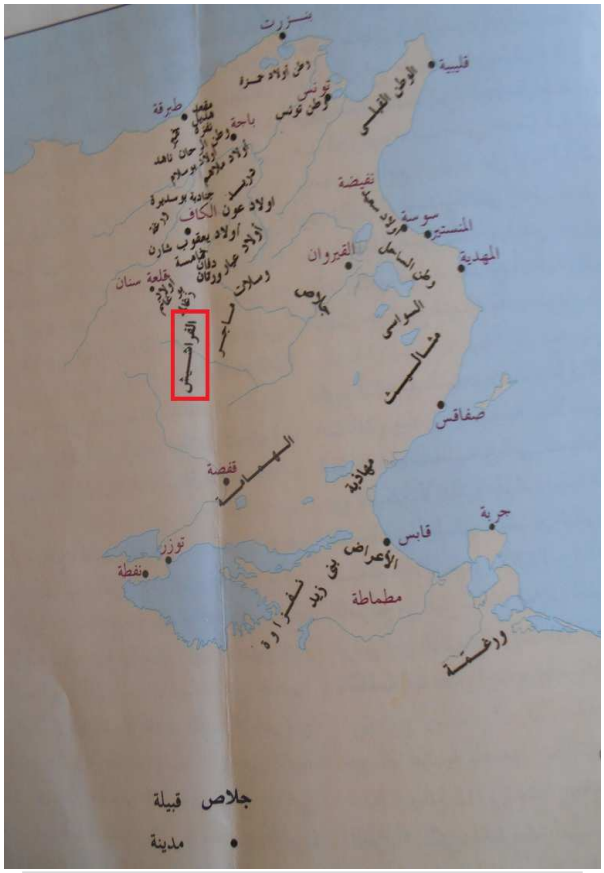

• مدينة | **الفراشيش** | **قبيلة**

تونس عبر التاريخ من العهد العربي الإسلامي إلى حركات الإصلاح، الجزء الثاني، تأليف نخبة من الأساتذة الجامعيين بإشراف الأستاذ خليفة شاطر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ٢٠٠٧. ص ٢١٣. (بتصرف).

الهَوامِشُ:

(١) التيمومي (الهادي)، **انتفاضة القصرين، تالة ١٩٠٦**، دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١١.

(٢) جدي (أحمد)، **قبيلة الفراشيش في القرن التاسع عشر**، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، نوفمبر/ تشرين الثاني، تونس، ١٩٩٦، ص ١٤.

(3) Duveyrier (H), ***La Tunisie***, Paris, 1881, p 65.

(4) Timoumi (Hedi) , ***Paysannerie tribale et capitalisme colonial (l'exemple du centre ouest tunisienne 1881-1930)***, thèse de 3(ème) cycle, Nice , 1975, p46.

(5) Monchicourt (CH), ***La région du Haut Tell en Tunisie (le Kef, Teboursouk, Maktar, Thala) essai de monographie géographique***, Paris, A, colin, 1913, p 297.

(٦) التيمومي (الهادي)، **انتفاضة القصرين-تالة ١٩٠٦**، مرجع مذكور، ص ١٣.

(7) Lambert (P), ***Dictionnaire illustré de la Tunisie***, Tunis, Saliba, 1912, p 248.

(٨) انظر: الدفاتر الجبائية عدد: ١٣٩٧، التاريخ (١٢٩٧هـ/ ١٨٦٢ – ١٨٦٣م)، صفحات غير مرقمة، انظر أيضًا: الجدي (أحمد)، **قبيلة الفراشيش في القرن التاسع عشر**، مرجع مذكور، ص١٦٩-١٧٠-١٧١-١٧٢ أيضًا: التيمومي (الهادي)، **انتفاضات الفلاحين في تاريخ تونس المعاصر مثال ١٩٠٦**، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٣، ص٢٠٧-٢١٠.

(9) Bulletin de la Direction de l'agriculture, du commerce et de la colonisation (Tunis).

(١٠) التيمومي (الهادي)، مرجع مذكور، ص ١٥.

(١١) مزالي (محمد الصالح)، **تطور تونس الاقتصادي ١٨٨١-١٩٢٠**، تعريب الهادي التيمومي، بيت الحكمة، قرطاج، ١٩٩٠، ص ٣٨.

(١٢) **الزنبيل** هو وعاء يصنع من الحلفاء ويتكون من جزئين (قفتين) متلاصقين يوضع على ظهر الحمار أو البغل لنقل البضاعة من مكان لآخر.

(١٣) **الشارية** شبيهة بالزنبيل ولكنها تتكون من جزء وحيد (أي من قفة وحيدة).

(١٤) **البردعة** توضع على ظهر الحمار أو البغل أو الحصان وهي بمثابة الفراش لراكب الخيل.

(١٥) **السناج** يشبه الجيابة ولكن حجمه صغير يستعمل لنقل كمية صغيرة من البضاعة وهو بمثابة القفة اليوم

(١٦) تستعمل لنقل غمر القمح والشعير بعد الحصاد والغمر هو كمية محدودة من القمح أو الشعير المحصود قبل خضوعه للدريسة.

(17) Faucon (N), ***La Tunisie avant et depuis l'occupation française, histoire et colonisation***, Paris, Challamel, 1893, 2V, pp 59-60.

(18) YAZIDI (B), ***La politique coloniale et le domaine de l'Etat en Tunisie***, édition Sahar, Faculté des lettres, des Arts et des Humanités de Manouba, 2005,p 300.

(19) FOUCON (N), ***La Tunisie avant et depuis l'occupation française, histoire et colonisation***, Paris, 1893, pp 59 et 60. Voir aussi: MONCHICOURT (CH),"La steppe Tunisienne chez les Frechich et les Majeurs" ***Bulletin de la direction de l'Agriculture et du commerce***, 10(ème) années, N° 38, 1èr semestre, 1906, p185.

(20) Ibid.

(21) LAITMAN (L),"Le marché et la production de l'huile d'olive en Tunisie ,"**Annales de géographie**, 1953, p276.

(22) CITTANOVA (M),"L'alfa", **Revue de la section tunisienne de la société de géographie commerciale et d'études coloniales de paris**, 1935, pp129.

(23) Ibid.

(24) Ibidem

(٢٥) مزالي (محمد الصالح)، **تطور تونس**...، مصدر سابق، ص٣٨.

(٢٦) بويحي (سالم)،"**الحركة النقابية في قطاع الحلفاء بالوسط والجنوب الغربيين، ١٩٤٦-١٩٥٦**"، **كراسات تونس**، الثلاثة أشهر الثالثة، ١٩٩٣، ص ١٢.

(27) CITTANOVA (M),**"L'alfa"**..., art.cité, p129.

(28) CITTANOVA (M),**"L'alfa"**..., art.cité, p129.

(29) COIGNET (J), ***L'hydraulique en Tunisie et les grands barrages réservoirs***, Tunis, 1970, p53.

(٣٠) مزالي (محمد الصالح)، **تطور تونس**...، مرجع مذكور، ص ١٨١-١٨٢.

(31) COIGNET (J), ***L'hydraulique en Tunisie...op.cit.*****p 53.**

(٣٢) قسّومي (المولدي)، القصرين: "من الاستعمار الرأسمالي إلى الاندماج الوطني أسئلة حول التحولات الهيكلية"، القصرين ذاكرة وتاريخ، **أعمال الندوة العلمية** التي انتظمت بالقصرين من 0 إلى ٨ أفريل ٢٠٠٧. القصرين، تونس، ٢٠٠٩. ص ١٩٩.

(٣٣) الماجري (لزهر)، **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي)**، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، ٢٠٠٧، ص ٧٢. انظر أيضًا:

- Monchicourt (Ch), ***La Région du Haut Tell***...., p 36.

(٣٤) الملف ٢٠٢، التاريخ (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)، الوثيقة ١٢٠. مراسلة من الحاج سليمان يوسف وحراث بن محمد ومصطفى بن قضوم إلى الإدارة المركزية يذكرون أن " أناس يبيعون الدباغ أتوا للبنباشي أخذ منهم ما وجب عليه بمقتضى الإذن ومكنهم من ترخيص للتوجه للجزائر للبيع لكن حكام تبسة افتكوا سلعتهم ٧٣ بعير و٣٦ حمار وتمكنوا بالتجار" نجد أيضًا: بالدفتر عدد ٧٤ بتاريخ (١١٦٠ – ١١٦٨هـ/ ١٧٥٢-١٧٦٨م)، ص ٥٢ ما يلي: "٧٢٦٩ شبكة حطب لتدفئة وتسخين حمام الباي وحاشيته" ، ٢١٦٠ شبكة حطب خرجوا لحمام المعظم سيدنا" ، توفر الجهة كميات هامة من السمن إلى السلطة. انظر الدفتر عدد ١٤٧، تاريخه ١١٨١هـ/ ١٧٦٧ – ١٧٦٨م، ص ١٢٦-١٣٣، وفر الفراشيش بمفردهم خلال هذه السنة ٨٨ قنطارا و٩٠ كيلوغرامًا. انظر أيضًا في خصوص تنوع الحرف: Fond du Quai d'Orsay: G11, p 62.

(35) Monchicourt (Ch), ***La Région du Haut Tell***....,op.cit, pp 391-398.

(٣٦) الماجري (لزهر)، **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**...مرجع مذكور، ص ٧٦.

(37) Attia **(H), Les Hautes Steppes Tunisiennes,** p290.

(٣٨) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، ذكره الهادي التيمومي، **الكادحون في الأرياف التونسية**...، ص٢٦٢. ورد في **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**...مرجع مذكور للزهر الماجري، ص ٧٧.

(٣٩) الملف ٢٠٠، التاريخ ١٢٦٨ هـ/ ١٨٦٩-١٨٧٠ م، الوثيقة ١٠١. مراسلة من محمد قعيد بنسالم والشيخ محمد بن سليمان إلى الباي محمد الصادق يذكر فيها: "تخريف هجيج أولاد علي (من الفراشيش) على الهندي بجبل سمامة.